أدب المديح النبوي في شعر القاهري والدهلوي

د. محمد اعجاز[١]

الملخص

إن الهند لا تزال تلعب دوراً بارزاً في ازدهار اللغة العربية وآدابها منذ القدم، وهذه حقيقة واضحة لا يمكن رفضها لمن أراد أن يقوم بمسؤولية البحث عن اللغة العربية وآدابها لأن علمائها ساهموا في تطويرها وترويجها نظماً ونثراً عبر العصور، والهند قد أنجبت عدداً لا يستهان به من عباقرة الأدب العربي، وخصوصاً في أدب المديح النبوي، وهؤلاء العلماء اهتموا بالمديح النبوي كل الاهتمام، وبالإضافة إلى ذلك قد صاروا اشتهروا بتضلعهم في هذا الأدب والفن، وبقدرتهم الفائقة في نظم المديح النبوي. وأصبح المديح النبوي بابًا كاملًا في الأدب العربي، وفنًّا مستقلًّا عن الفنون العربية الأخرى. ففي هذا المقال ركزنا على المدائح النبوية التي نظمها الشيخ صدقة الله أبا القاهري، والإمام ولي الله الدهلوي بقدر من التفصيل والاهتمام، وتطرقنا إلى حياتهما بإيجاز. كما قدمنا أيضًا لمحة عن تاريخ أدب المديح النبوي ومفهومه بإجمال.

الكلمات المفتاحية: المديح النبوي، القاهري، الدهلوي.

مفهوم المديح النبوي وظهوره

كما يقول الدكتور زكي مبارك، فإن المدائح النبوية هي "فنّ من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلّا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص[٢]." ويقصد بأدب المديح النبوي

---

١ رئيس القسم، وأستاذ مساعد بكلية كونية للفنون والعلوم، كيرالا، الهند.

٢ الدكتور زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، ص: ١٧.

الثناء والتنويه بحبيب الله محمد ﷺ، والتقرب من الله سبحانه وتعالى بوساطته. ويقال إن هذا النوع من الشعر ظهر مع مولد النبي ﷺ، ومن المناسب هنا أن نذكر بعض ما قيل في مدحه ﷺ قبل بعثته، كما قال عبد المطلب جدّه عند ولادته ﷺ:

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في الضياء وفي النور وسبل الرشاد نخترق[١]

وكذلك عمه أبو طالب، إذ مدحه قائلاً:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[٢]

ومن البديهي أن المديح النبوي انتشر مع انطلاق الدعوة الإسلامية، إلا أنه بسماته الخاصة لم يظهر إلا مع قصيدة البوصيري المعروفة باسم "البردة" في القرن السابع الهجري. وقد نشأ فن المديح النبوي وتطور كفن من الفنون الأدبية العربية وغاية من الغايات الشعرية عبر العصور، وازدهر ازدهارًا واضحًا ونضج بفضل اعتناء الأدباء والشعراء به في ثلاث مراحل:

تطور المديح النبوي على مراحل:

المرحلة الأولى: فترة الدعوة الإسلامية

تُعدّ فترة الدعوة الإسلامية مرحلةً تأسيسيةً لفن المديح النبوي، إذ كان النبي ﷺ يشجع الشعراء على الدفاع عن الإسلام وعن ذاته الشريفة[٣]. وفي الحقيقة، بدأ فن المديح النبوي يتطور على يد الشعراء الذين دافعوا عن الإسلام ورسوله الأمين ﷺ ، ومن أبرزهم شاعر الرسول حسان بن ثابت، الذي قال في ردّه على الزبرقان بن بدر وسبعين أو ثمانين شاعرًا من بني تميم:

---

١ د. عباس الجراري، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص: ١٤١.

٢ رواه البخاري عن عبد الله بن دينار في صحيح البخاري، رقم ١٠٠٨.

٣ الدكتور ماهر حسين فهمي، قضايا في الأدب والنقد: رؤية عربية، ص: ٩٣-٩٤.

أكرم بقوم رسول الله قائدهم إذا تفرقت الأهواء والشيع

وإنهم أفضل الأحياء كلهم إن جدَّ بالناس جد القول واشمعوا

ومنهم كعب بن زهير، صاحب قصيدة "البردة" المشهورة باسم "بانت سعاد" و"لامية العرب"، حيث يقول فيها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّم إثرها لم يفد مكبول[١]

ويُروى أن النبي ﷺ عندما وصل كعب إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

عفا عنه نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام، وألقى عليه بردته كهدية. وبعد مرور الأيام، اشترى معاوية هذه البردة، لكن تم إحراقها لاحقًا عندما أحرق هولاكو بغداد[٢].

ومن شعر عبد الله بن رواحة قوله:

إني تفرست فيك الخير نافلة الله أني ثبت البصر

أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر[٣]

المرحلة الثانية: ظهور البوصيري

في هذه المرحلة، برز المديح النبوي كفن مستقل وأصبح مصطلحًا أدبيًا بفضل قصيدة البوصيري المشهورة بـ "البردة". ويعدّ البوصيري رائد المديح النبوي وأستاذًا لهذا الفن بلا منازع، ليس فقط في عصره، بل في العصور اللاحقة أيضًا. وقد كان عهد البوصيري زمنًا مليئًا بالمحن والفتن للأمة المسلمة، إذ شهد الحروب الصليبية، مما جعل من الطبيعي أن تعود الأمة إلى التعاليم الإسلامية والشخصية المثالية

---

١ الإمام أبو سعيد الحسن بن الحسين، ديوان كعب بن زهير، ص: ٤٣.

٢ الدكتور محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، ج: ١، ص: ١٨٢.

٣ محمد رضا، محمد رسول الله، ص: ٢٩٨.

للرسولﷺ. وبذلك أصبحت شخصيته الشريفة من أهم مواضيع الشعر العربي، وأولى أبرز الشعراء اهتمامًا بالغًا بهذا الفن، مما أدى إلى تطوره الكبير في هذه المرحلة.

المرحلة الثالثة: العصر الحديث

يُعد العصر الحديث مرحلة ثالثة لازدهار المديح النبوي، ومن المعلوم أن هذا الفن ليس غريبًا عن أغراض الشعر العربي، بل ظهر مع مولد النبي ﷺ، وتطور بعد بعثته، وازدهر عبر العصور المختلفة. وقد شهد العصر الحديث نهضة ملحوظة في هذا الفن، نتيجةً للمحن والصعوبات التي واجهها المسلمون. ومن المعروف أن العصر الحديث هو عصر التحديات، حيث سيطرت القوى الاستعمارية على الوطن الإسلامي لفترة طويلة، ولا تزال تتطلع إلى أراضٍ جديدة في العالم العربي. لذلك، عادت المدائح النبوية لتكون قوة دافعة من جديد، وأصبحت السيرة النبوية مثالًا أعلى وقدوة يتبعها السائرون. ومن هنا، ظهر لون جديد من المديح النبوي مستفيدًا من التطور الفني المعاصر[١].

الشيخ صدقة الله القاهري

أسهمت الهند في الأدب العربي، وخصوصًا في المديح النبوي، إسهامًا يستحق العناية والتقدير، إذ تميزت قصائد شعرائها في مدح النبي ﷺ بجودة النظم وسبك المعاني وعذوبة الألفاظ، حتى تعادل أشعار العرب الخلّص. وجدير بالذكر أن المديح النبوي لاقى رواجًا كبيرًا في الهند، وأنجبت هذه البلاد نوابغ من الشعراء الذين أثروا المكتبات الهندية بقصائد مدحية مشهورة، وأسهموا في هذا الفن إسهامًا كبيرًا كما فعل الشعراء العرب. في هذا السياق، نستعرض حياة الشيخ صدقة الله القاهري والإمام ولي الله الدهلوي بإيجاز، مع بيان إسهاماتهما في المديح النبوي بتفصيل.

حياة القاهري

---

١ الدكتور ماهر حسن فهمي، قضايا في الأدب والنقد: رؤية عربية، ص: ٩٤.

كان الشيخ صدقة الله القاهري من الشعراء العباقرة الذين أنجبتهم ولاية تاميل نادو، وكان عالمًا بليغًا وفقيهًا عظيمًا وشاعرًا مرتجلًا، ومؤلفًا بارعًا، وزاهدًا مشهورًا في التصوف. تميز بمهارة في اللغة العربية وتبحّر في العلوم المختلفة، وكان صاحب تبجيل وتقدير من كافة الناس في عصره. كان يحل كثيرًا من القضايا الهامة بدون منصب رسمي، وحينما أراد السلطان أورنكزيب أن يجعله قاضي القضاة لجنوب الهند، اعتذر عن قبول المنصب.

مولده ونشأته

كانت أسرة القاهري معروفة في ولاية تاميل نادو بإسهاماتها العلمية والدينية والثقافية في جنوب الهند منذ أربعة قرون، ويرجع نسبه إلى الشيخ محمد الخلجي الذي عاش في المدينة المنورة في أيام العباسيين. كان أجداد القاهري من جماعة وفدت إلى الهند من مصر في القرن الثالث الهجري، واستقروا في مدينة ساحلية سُمّيت "قاهرة بتنم" نسبةً إلى القاهرة[١]، ثم تحولت عبر الزمن إلى "كايل بتنم". وُلد القاهري عام ١٠٤٢ هـ في "قاهرة بتنم"، ونشأ في بيت علم وصلاح وشرف، وتلقى تعليمه الابتدائي عن والده، وحفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره. كان والده معلمه الأول، وبيته مدرسته الأولى، مما أرسخ مبادئ العلوم في فكره. ثم قرأ على الشيخ عبد القادر الشينيني وتعلم منه العلوم الدينية، وأتقن اللغة العربية، ثم رحل إلى دلهي لاستكمال العلم من علمائها، واقترب من السلطان أورنكزيب، الذي أدرجه ضمن الأربعين عالمًا الذين أشرفوا على تدوين "الفتاوى الهندية".

له العديد من المؤلفات، وهي وإن كانت صغيرة الحجم، إلا أنها دليل على فضله وقدرته الفائقة في اللغة العربية. ومن أعماله النثرية: "توضيح الدلالة في تصحيح الجلالة"، و"استدعاء الأعلام إلى دعاء عتبة العلام"، و"الحواشي على البيضاوي

١ الدكتور جمال الدين الفاروقي، أعلام المؤلفين بالعربية في البلاد الهندية، ص: ٩٠.

والدميري والدر المنثور". أما في الشعر العربي، فمنها: "التخميس والتذييل على القصيدة الوترية" التي نظمها بعد عودته من الحجاز، و"تخميس قصيدة البردة للبوصيري" و"تخميس بانت سعاد" و"تخميس ذخر المعاد[١]".

يمكن القول إن كل من يتصفح أعمال القاهري من الباحثين والدارسين يدرك مكانته العلمية والاجتماعية بين العلماء وعامة الناس في عصره، نتيجة لمؤلفاته وتلاميذه. وكان لتعاطف الناس معه أسباب، أولها: كثرة مدائحه للنبي ﷺ التي ظل يكثر منها حتى وفاته، وثانيها: قربه من السلطان أورنكزيب والسلطان مراد العثماني، مما أكسبه مكانة مرموقة بين العلماء خاصة، وبين عامة الناس.

ثناء العلماء على القاهري

يستعرض العلماء ثناءهم على الشيخ صدقة الله القاهري، مما يظهر مكانته العالية بينهم في أقوالهم النثرية والشعرية. وقد أشاد العلامة السيد محمد عالم بذكره فقال: *"إنّ الإمام، يعني صدقة الله، كان بدر الصدور وصدر البدور وقدوة العباد وأسوة الزهاد وحسن الخلق والأوصاف وسَيّع الرفق والألطاف[٢]"*.

مساهمته في المديح النبوي

كانت معظم أعمال القاهري الشعرية في المديح النبوي، وتشهد قصائده بجودة لغته وتمكنه من الفصاحة والبلاغة وبراعته في العروض والقوافي، حتى صار من روّاد المدّاحين. بلغ في مدحه للنبي ﷺ درجةً من الجمال والرصانة والروعة لم يصلها إلا القليل من شعراء العرب، مما أكسبه لقب "مادح الرسول ﷺ". ويُعد تخميسه للقصيدة الوترية من أروع مدائحه النبوية، حيث استخدم فيها جميع حروف القافية العربية، مما يبرز مكانته في العربية وبراعته الشعرية.

---

١ نفس المرجع، ص: ٩٠-٩٣.

٢ نفس المرجع.

كان معظم شعره في المدائح النبوية، وتتميز قصائده بجمالها وروعتها، مما ينشئ في قلوب القراء محبةً خالصةً للنبي ﷺ. وقد عُرف بتخميسه لقصيدة *"بانت سعاد"* ولـ*بردة البوصيري*، ومن أبيات تخميسه نذكر:

ومن شرط إيمان الموحد حبّه فطوبى لمشتاقٍ له وهو صبّه

أقول كما قال اشتياقًا محبّه وعزة ربي إن قلبي يحبّه

ولي سكرة بالشوق جلت عن الصحو

كأن لنا مدح الحبيب حليبنا كذا ذكره عند الأوام قليبنا

بألطافه عنا تغيب كروبنا بأوصافه الحسنى تطيب قلوبنا

وتهتزّ شوقًا والركائب تطرب

نبيٌّ عظيمٌ لم نجد قط نحوه ولم ينجح ناجٍ في الشمائل نحوه

ولم يمح ماحٍ للأباطيل نحوه جديرٌ بنا نسعى وندلج نحوه

فذاك الذي يسعى إليه ويدلج

ألفتُ بكسب الذنب مذ أنا يافع وموج الخطايا خافضٌ بي ورافع

فمعتمدي إن أنت عني مدافع إذا لم يكن لي من جنابك شافع

شقيت فمالي غير جاهك ملجأ

تخميس بردة كعب بن زهير

لقد أضاف القاهري على قصيدة "بانت سعاد" ١٨٩ بيتاً، مضيفاً ثلاثة أشطر لكل بيت، ويقول:

بُشرى فقد نجح المأمول والسّول طوبى فذا العبد بالغفران مغسول

هنيئاً الخير مجموع ومحصول زال النحوس فنعم الفوز موصول

والحمد لله فالمعذور مفصول

بذرت عمري في الزلات مبتذراً كأنني كنت بالعذرات معتذرا

فالآن عني نأى ما كنت محتذرا فقد أتيت رسول الله معتذرا

والعذر عند رسول الله مقبول

إنَّ النبيّ هو الهادي يضاء به قلب إلى الحق قام الاستضاء به

والله لولاه أين المستضاء به إن الرسول لسيف يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

تخميس بردة البوصيري

لقد قام القاهري بتخميس قصيدة البوصيري بصورة ممتازة، حيث يشاطر الإمام البوصيري حبّه للنبي ﷺ، وتنسجم عواطفه مع عواطف البوصيري. ويقول:

يا باكيا لنوى الأحباب ذا ألم وصار شوقك بين الخلق ذا علم

قل لي وإنك في أمن وفي سلم أمن تذكر جيران بذا سلم

مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وابعث شفيع عصاة عنك هائمة في رتبة بمقام الحمد قائمة

ينجي غدا كل نفس فيك رائمة وأذن لسحب صلاة منك دائمة

على النبي بمنهل ومنسجم

واشمل بها آله سادتنا حسبا وصحبه قاتلي أعداءه حصبا

واجمع بها كل تباع الهدى عصبا ما رنحت عذبات البان ريح صبا

وأطرب العيس حادي العيس والنعم[١]

حياة الإمام ولي الله الدهلوي

الإمام ولي الله الدهلوي، المعروف بالشاه ولي الله الدهلوي العمري، هو إمام الأئمة، وارث الأنبياء، وآخر المجتهدين، وحجة الأنام، ومسند الهند. يُعدّ من الأئمة

١ نفس المرجع، ص: ٩٤-٩٨.

المجتهدين والمجددين الكبار في تاريخ الإسلام، حيث أسهم في تشخيص الأفكار الفاسدة والعقائد الخبيثة التي عانت منها الأمة الإسلامية. واجه تحديات الاستعمار البريطاني في الهند، الذي سعى إلى تفريق صفوف المسلمين، وبذل جهودًا جبارة لحل الأزمات الفكرية والعقائدية، والردّ على الدسائس، وإصلاح الأفكار المزيّفة والعادات الجاهلية والبدع السيئة. وقد اعتمد في هذا الإصلاح على الكتاب الكريم والأحاديث النبوية، متحلياً بالصدق والأمانة.

لعب الدهلوي دورًا فعالًا في نهضة الأمة الإسلامية دينياً، اجتماعياً، وسياسياً. واعتنى بتدريس العلوم الدينية، فتتلمذ على يديه العديد من الشخصيات البارزة في مجالات التعليم، والدعوة، والإرشاد، والإصلاح. كما أن شهرته تجاوزت حدود الهند، واحتل مكانة عظيمة داخلها وخارجها بفضل اهتمامه بتأليف الكتب الإسلامية في مواضيع متعددة.

مولده ونشأته

وُلِد الدهلوي في الرابع من شوال سنة ١٧٠٣م (الموافق ١٧٦٢م)[١] في عهد السلطان أورنكزيب عالمكير، بقرية "فلت" في مقاطعة مظفرنكر. نشأ في أسرة معروفة بالعلم والتقوى والتصوف، وكان والده، الشيخ عبد الرحيم، من العلماء الأفاضل الذين ساهموا في ترتيب "الفتاوى الهندية". تعلم الدهلوي على يد والده، ثم سافر إلى أماكن متعددة ليتلقى العلوم السائدة في عصره، حتى أصبح من كبار الشخصيات العلمية في القرن الثاني عشر الهجري، ليس في الهند فحسب، بل في العالم الإسلامي بأسره.

كان الإمام ولي الله الدهلوي مفسرًا، محدثًا، فقيهًا، متكلمًا، صوفيًا، فيلسوفًا، مبدعًا، وشاعرًا في كل من اللغة العربية والفارسية. نظم قصيدته البائية في المديح

١ الدكتور مهدي حسن، تاريخ الأدب العربي، ص: ١١١.

النبوي، وكان فصيحًا في اللغة العربية وخبيرًا بفنونها. يعد كتابه "الفوز الكبير" دليلًا على براعته، وقد ألّف أكثر من أربعين كتاباً في شتى فروع العلم، منها[١]:

الأربعين، وإزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء، والإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، التفهيمات الإلهية، والبدور البازغة، وحجة الله البالغة، والفوز الكبير، وشرح تراجم أبواب البخاري، وفتح الرحمن في ترجمة القرآن، والمسوّى، شرح الموطأ، وفيوض الحرمين، وقرة العينين في تفضيل الشيخين، والمصفّى شرح الموطأ، والقول الجميل في بيان سواء السبيل، وعقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، وديوان شعره، جمعه ابنه الشيخ عبد العزيز.

مساهمة الإمام الدهلوي في المديح النبوي

من المعروف أن الإمام الدهلوي كتب في المديح النبوي شأنه شأن كبار شعراء الهند، ولا عجب أن تكون شخصية النبي ﷺ مصدر إلهام وتقدير لهؤلاء الشعراء، إذ إن حب النبي مرتبط بجوهر العقيدة الإسلامية. خصص الدهلوي اهتمامًا كبيرًا لهذا المجال، وقد نظم قصيدته البائية في المديح النبوي، التي تتميز بغناها بالصور الإبداعية والمعاني الرائعة، مما يجعلها ثروة أدبية في تاريخ الشعر العربي في الهند. وفيما يلي بعض أبيات قصيدته الشهيرة:

إذا ما أتتني أزمة مدلهمة تحيط بنفسي من جميع الجوانب
تطلبتُ هل من ناصر أو مساعد ألوذ به من خوف سوء العواقب
فلست أرى إلاّ الحبيب محمدا رسول إله الخلق جم المناقب
جزى الله أصحاب النبي محمد جميعاً كما كانوا له خير صاحب
وآل رسول الله لا زال أمرهم قويما على أرغام أنف النواصب

١ نفس المرجع.

على الله رب الناس حسن جزائهم بما لا يوافى عده ذهن حاسب
فمن شاء فليذكر جمال بثينة ومن شاء فليعزل بحب الربائب
سأذكر حبي للحبيب محمد إذا وصف العشاق حب الحبائب
وصلى عليك الله يا خير خلقه ويا خير مأمول ويا خير واهب[١]

الخاتمة

من خلال ما تم استعراضه عن حياة الشيخ صدقة الله أبّا القاهري والإمام الشاه ولي الله الدهلوي، يظهر لنا أن كليهما نشأ في بيوت تزخر بالعلوم والمعارف، وعاشا في بيئة علمية ودينية. تلقى القاهري والدهلوي أهم العلوم الشرعية والعربية من آبائهما، وقدما خدمات جليلة للأمة الإسلامية، مستثمرين أقلامهما لتجلية حقائق الإسلام وكشف زيف التيارات الإلحادية والأفكار المنحرفة.

عند دراسة الموضوعات التي تناولاها في مؤلفاتهما، نجد أن أعمالهما تغطي معظم موضوعات الشريعة الإسلامية، من التفسير والحديث والفقه إلى علم الكلام والفلسفة، مرورًا بالتصوف والأدب. وخصّصا اهتمامًا كبيرًا بمديح النبي ﷺ، مقدمين مساهمات تستحق العناية والتقدير.

يمكننا القول أخيرًا إنّ المديح النبوي يُعتبر أدبًا مستقلًا وفنًّا أصيلًا ذا احترام وتقدير كبيرين، وقد أصبح غرضًا مستقلًا من أغراض الشعر العربي عبر العصور. ولهذا النوع من الشعر أهمية كبرى ومكانة مرموقة بين موضوعات الشعر العربي. كما تعكس الأشعار المذكورة في هذا البحث براعة الشاعرين القاهري والدهلوي في قرض الشعر العربي ومهارتهما الفائقة في اللغة العربية، إذ نُسجت أشعارهما من عاطفة صادقة.

---

١ الدكتور جمال الدين الفاروقي، أعلام المؤلفين بالعربية في البلاد الهندية، ص: ٩٥-١٢٩.

نسأل الله تعالى التوفيق والسداد في هذا العمل، وأن يكلل جهودنا بالفضل والمنّ.

المصادروالمراجع

- *صحيح البخاري*.
- مبارك زكي، *المدائح النبوية في الأدب العربي*، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٣٥م.
- الفاروقي، جمال الدين، وعبد الرحمن محمد الأدرشيري، وعبد الرحمن حسن، *أعلام المؤلفين بالعربية في البلاد الهندية*، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث، دبي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- الجراري، عباس، *الأدب الغربي من خلال ظواهره وقضاياه*، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- فهمي، ماهر حسين، *قضايا في الأدب والنقد: رؤية عربية، وقفة خليجية*، دار الثقافة، الدوحة، قطر، ١٩٨٦م.
- الفاروقي، جمال الدين، وعبد الرحمن محمد الأدرشيري، وعبد الرحمن المنغادي، *أعلام الأدب العربي في الهند*، مكتبة الهدي، كاليكوت، كيرالا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- حسن، محمد مهدي، *تاريخ الأدب العربي*، كتب خانه رشيديه، دهلي، ٢٠١١م.
- رضا، محمد، *محمد رسول الله*، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.